من شئونه الاجتماعية

لم يكن الرافعى عضواً فى جماعة من الجماعات ، ولا منتسباً إلى حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف ؛ إذ كان يؤثر الوحدة والاستقلال فى الرأى . وكان من التعصب لرأيه والاعتداد بنفسه بحيث يأبى أن ينزل عن رأى يراه مجاملة لصديق أو خضوعاً لرأى جماعة ينتسب إليها ؛ وكان له من علته سبب آخر نبّهتُ إليه عند الحديث عن نشأته . ثم إن الرافعى لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم ما تفرض عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوبَ الناس فيما يليق وما لا يليق ؛ فهو لا يعتبر إلا رأيَه ، أو حاجتَه ، أو مصلحتَه ، فيما يكون بينه وبين الناس من صِلات ، ولم يكن يعرف هذا (النفاق الاجتماعى) الذى يسميه الناس : التقاليدَ ، أو الأدبَ اللائق ... ! فهو بذلك كان عالَماً منفرداً يسير فى نهجه إلى الهدف المؤمَّل على وحى الفطرة أو هدْى الإيمان . سمِّ هذا شذوذاً فى الخُلق ، أو سمِّه استقلالاً فى الرأى وأسلوباً من التعبير عن الشخصية المتميزة بخصائصها ؛ فما يعنينى هنا إلا إثبات هذه الحقيقة فى التاريخ كما شهدتها فى معاملاته وفى صِلاته بالناس ، وكما لمحتها فى جملة من أحاديثه ... هذه الأسباب هى أهمّ ما كان يباعد بين الرافعى والاشتراك فى الجماعات ، أو يباعد بينها وبينه !

على أن ذلك لم يكن يمنعه أن يكون هواه مع جماعة من الجماعات أو حزب من الأحزاب فى وقت ما لسبب ما ، ولم يمنعه ذلك أن يكون عضواً فى بعض الجماعات

وأول أمره فى ذلك — على ما أعرف — أنه شرع وهو شاب لم يجاوز العشرين فى تأليف جماعة من الشباب تدعو إلى نوع من الإصلاح الدينى ؛ وكان معه على هذا الرأى صديقان من أترابه ، أذكر منهما الأستاذ عبد الفتاح المرقى المحامى بطنطا ؛ وقد اتخذوا (مسجد البهى) فى طنطا مكاناً لاجتماعهم وتبليغ

دعوتهم ، وطنطا ، كما قد يعرف كثير من القراء ، مركز هام من مراكز الثقافة فى مصر ، وفى أهلها حفاظ وتحرج ، ولها صبغة دينية نشأت من أن فيها معهداً دينياً كبيراً فى (الجامع الأحمدى) كان فى وقت ما يشتد عدْواً فى مسابقة الجامع الأزهر بالقاهرة . والأزهريون فى طنطا ، كالأزهريين فى القاهرة ، إلى عهد قريب ، أكثرُ أهل العلم فى مصر حفاظاً على القديم ، وأسرُعهم إلى سوء الظن بكل إصلاح جديد ؛ من ذلك لقى الرافعى وصاحباه فى دعوتهم ما لقوا من عِداء طلبة الجامع الأحمدى وعلمائه ، حتى هم الطلبة مرة أن ينالوهم بالأذى فى أبدانهم ... فلم يجد الرافعى وصاحباه فى النهاية بداً من التسليم ، وانحلت الجمعية الرافعية الصغيرة .

حدثنى الرافعى حديث هذه الجمعية فى خريف سنة ١٩٣٢ بعد ثلث قرن مما كان؛ وكنت ذهبت إليه يومئذ فى وفدٍ ثلاثةٍ ندعوه إلى الاشتراك معنا فى جماعة أنشأناها بطنطا فى ذلك الوقت باسم « جماعة الثقافة الإسلامية » تدعو فيما تدعو إلى العمل على إحياء الشعور بمعنى القومية الإسلامية العربية ، واتخذتْ لذلك وسائل وشرعت نهجاً ؛ وكانت تضم فيمن تضم طائفة ممتازة من أهل الرأى والعلم والأدب ، لكل منهم صوت ورأى وجاه فى قومه ...

ولبى الرافعى دعوتنا بعد تمنُّع ، وانتظمت الجماعة على رأى واحد إلى هدف واحد ، فلما استكملنا الأهبة ، دعونا الشباب المثقفين فى طنطا إلى اجتماع عام فى نادٍ كبير ، وكان الرافعى من خطباء الاجتماع .

صعد الرافعى إلى المنصة ، فوقف برهة يجيل نظره فى ذلك الجمع الحاشد ، ثم انطلق فى خطبته .

وعلى أن الدعوة إلى الاجتماع كانت عامة ، وعلى أن موضوعه هو الثقافة الإسلامية ؛ فإنه لم يشهد هذا الاجتماع من شيوخ (الجامع الأحمدى) ومدرسيه غير ثلاثة من الشيوخ ، وطائفة غير قليلة من المدرسين غير الشيوخ ؛ ولم يفت الرافعى أن يلاحظ ذلك ؛ فمال فى خطبته إلى هذه الناحية ، ينعى على شيوخ الأزهر أن يتجاهلوا واجبهم فى مثل هذه الدعوة ، وأن يؤثروا القعود على الجهاد لله !

وكان فيما قاله : « ... إن أديباً كبيراً من وزراء الدولة قد قالها مرة منذ ثلاثين سنة : لو قعد حمارى فى الأزهر خمس عشرة سنة لخرج عالماً وما نحب أن يقولها اليوم أحد ليلحد فى كفاية طائفة من أهل العلم والدين هم أكرم علينا ... ! »

قالها الرافعى فى حماسة وانفعال وفى لهجة خطابية ثائرة ، فسمع المجتمعون همهمة عن يمينه وشماله ، أما عن يمينه فكان الشيوخ الثلاثة قد آذاهم ما قال الرافعى ، وأما عن الشمال فكان طائفة من المدرسين غير الشيوخ فى الأزهر قد خافوا أن تؤوّل كلمة الرافعى تأويلاً ينالهم بالشر من إخوانهم الأزهريين ...

وعلى أن الرافعى كان برىء الصدر فيما قال ، وعلى أن الأزهريين كانوا يعلمون قبل غيرهم أن هواه معهم ، وعلى أن صدر كلامه وخاتمته لم يكن ينبئ عن قصد الإساءة ؛ فإن هذه الكلمة التى قالها قد أحدثت دوياً بين الأزهريين تهدّد الجماعة فى نشأتها

وسعى ساع إلى شيخ الجامع الأحمدى (المرحوم الأستاذ محمود الدينارى) فأنبأه أن الرافعى قد قال فى خطبته : « لو قعد حمارى فى الأزهر بضع سنين لخرج أعلم من شيخ الأزهر ...! »

وكتبها كاتب فى رسالة خاصة إلى الأستاذ الجليل الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر ... !

وتسامع بها الشيوخ على ما حكاها الراوى فراحوا يتناولون الرافعى وجماعته بما وسعهم من التجريح فى أعراضهم ودينهم ومقاصدهم ، وقال قائل منهم : « وما حاجتنا إلى هذه الجماعة فيما تدعو إليه ؟ لقد انتشر الإسلام ومد ظلاله فى العالم على حد السيف ؛ فما يغنى غَناءه فى هذه الدعوة كاتبٌ يكتب أو خطيب يخطب ! » وامتدت هذه القالة الطائشة على لسان طائفة ...

وعرف الطلاب من الأمر ما عرفوا فأعلنت طائفة منهم الحرب ، وسعتْ طائفة أخرى فى وفد إلى مدير المديرية تطلب إليه أن يقمع هذه الفتنة بسلطانه ، واصطبغت المشكلة صبغة سياسية ؛ إذ كان للأزهريين يومئذ فى السياسة دولة وسلطان ...

وإذ اتصل الأمر بالسياسة ، فإن طائفة من الموظفين المنتسبين إلى الجماعة قد فزعوا فآثروا البراءة منها على الدفاع عنها ، وأشفقت طائفة على مصير الجماعة فأوفدت وفداً إلى الأستاذ الديناري شيخ الجامع يحقق له الرواية ويمحو سوء الظن ويعتذر ... ولكن شيخ الجامع رد الوفد ردًّا غير جميل وقال عن الرافعي ما قال ...

وجاء الخبر إلى الرافعي بما أحدثت كلمته ، فما أفزعه من ذلك إلا أن يصدق شيخ الأزهر ما نقل إليه منسوباً إلى الرافعي وإنهما لصديقان من زمان ... فكتب إليه :

« ... وإن شيخاً من علماء الجامع الأحمدي يزعم أن الإسلام قد انتشر على حد السيف ، وهذا كلام ، وسيبقى كلاماً ما دمت ساكتاً عنه ، فإذا عرضتُ له بالمناقشة فقد تغيَّر وجهُه ، لو كان وجهَ النهار لاسودّ ! »

وعلم شيخ الأزهر حقيقة الدعوى التي ادعاها خصوم الرافعي عليه بما زادوا فيها ونقصوا ، فكتب يعتذر إليه ، وكتب إلى شيخ الجامع الأحمدي ...

وكان الرافعي جالساً إلى مكتبه في المحكمة حين جاءه الرسول يدعوه إلى مقابلة شيخ الجامع الأحمدي فرده ، وعاد يدعوه ثانية ويلح في الرجاء فحدد الرافعي موعداً وذهب إلى لقاء الشيخ فاستقبله العلماء بالباب في حفاوة بليغة ، وسعوا بين يديه مهرولين إلى مكتب الشيخ ؛ قال الرافعي : « ووجدت الشيخ في انتظاري وبين يديه (إعجاز القرآن) ؛ فما لقيني حتى قال : أتعرف يا سيدي أنني مدين لك ؟ هذا كتابك لا أجد لي رفيقاً خيراً منه ، إنه زادي وعمادي . ثم عَيَّثَ في درج مكتبه قليلاً فأخرج ورقة فيها شعر مكتوب ، فدفعها إليّ وهو يقول : وهذه قصيدة أعددتها لأنشدها بين يدي المليك في طريق عودته إلى القاهرة من مصيفه ؛ لا أجد من يصلحها خيراً منك ، فأنت أنت للشعر وللبيان ! »

قال الرافعي : « وبدون هذا كانت تقنع نفسي وترضى ، ولكنها كانت وسيلة الشيخ إلى استرضائي بعد الذي قال عني منذ أيام ؛ طاعةً لأمر شيخ الأزهر ... ! »

تم الصلح بين الرافعي والأزهر ، ولكن الأزمة التي كانت ، لم تُبْقِ على

الجماعة، فانحلت بعد ما طار منها أكثر أعضائها من الموظفين خشية التهمة بالسياسة. وكان للسياسة يومئذ حديث طويل ...

ولم يشترك الرافعى على ما أعلم فى غير هاتين الجماعتين

* * *

ولم تتهيأ للرافعى رحلة من الرحلات يفيد منها علماً أو تجربة طول حياته ، غير رحلة أو رحلتين — لا أذكر — إلى الشام . لم يفارق مصر إلى غير الشام من بلاد الله ؛ فزار طرابلس حيث ما تزال أسرة الرافعى لها ذكر وجاه ، وزار لبنان حيث عرف صاحبة حديث القمر فى سنة ١٩١٢ .

على أن الرافعى كان يحب الرحلة ويطرب لها ويتمنى لو أتيحت له . ولكن موارده المحدودة كانت تقعد به ؛ ولما كان فى بطانة المغفور له الملك فؤاد ، كان له جواز سفر مجانى فى الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد المصرية ؛ فكان يعد حصوله على هذا الجواز ظفراً بأمنية عزيزة ، لأنه أتاح له أن يتنقل ما شاء بين البلاد من غير غرم، حتى ما يكاد يستقر فى بلد، فيوماً فى القاهرة، ويوماً فى الإسكندرية، ويوماً فى بورسعيد ؛ يفيد من هذه الرحلات ما يفيد لأدبه أو لبدنه وأعصابه . حدثنى مرة أنه كان ينظم قصيدة من مدائحه الملكية ، فأحس شيئاً من التعب والملال ، فقصد إلى المحطة فاتخذ مقعده فى قطار كان على أهبة السفر إلى بورسعيد ، فأتم قصيدته هناك ثم عاد ...

وقد كان هذا الجواز هو سبب ما بينه وبين الإبراشى باشا مما فصّلت مجمله فى فصل سابق، وكان الرافعى قد قصد إليه يطلب مدّ أجل هذا الجواز بعد انتهائه !

وكان يغبط الذين يجدون فى طاقتهم أن يقضوا الصيف من كل عام فى أوربا ويتمنى لو أتيح له ، ليفيد من ذلك شيئاً يجدى على أدبه . على أنه مع ذلك كان يرحل إلى أوربا أيان يريد ، ولكن فى السيما ...

كان يسمى السيما : خارج القطر ! ويزعم أن فى ذهابه لمشاهدتها كلما سنحت له الفرصة غناء عن السفر ، فسواء عنده أن يرحل إلى أوربا فى قطار أو باخرة ،

وأن ترحل إليه أوربا بحالها فى رواية يشاهدها على ستار السيما ؛ فلكليهما أثر متشابه فى نفسه ؛ وذلك بعض مذهبه فى فلسفة الرضا والسعادة !

وكم كان ظريفاً أن تسمعه يتحدث إلى صديق من أصدقائه قائلاً : « هل لك أن تصحبنى الليلة إلى خارج القطر ؟ » يلقى هذا السؤال بلا تكلف ولا قصد إلى الفكاهة ، لأن كلمة (خارج القطر) كانت عنده عَلَماً عرفياً على السيما لا يحتاج إلى تعليق !

* * *

وكان عجيباً فى إيمانه بالغيب ، وتناجى الأرواح ، وتنادى الموتى والأحياء ؛ وكان يؤمن بالسحر والعرافة ؛ وكثيراً ما كنت تسمع منه : « حدثتنى نفسى ... أُلْقِى إلى ... هتف بى هاتف » وكان يعنى ما يقول على حقيقته . جلست إليه مرة فى منزله ، فأخذنا فى حديث طويل . . . وعلى حين غفلة سكت ، ثم قال : « كيف صديقنا مخلوف» ؟ قلت : «لم أره من زمان ! » قال : « إنه قادم الساعة .. لقد أُلْقِىَ إلىّ .. أحسبه الآن يصعد فى السلم .. ! » فما كاد يتم حتى دق الجرس . وكان الأستاذ حسنين مخلوف هو القادم ، وسألت الأستاذ مخلوفاً : أكان على موعد مع الرافعى ؟ فنفى لى كل ظنة !

وسألنى مرة أخرى : « ماذا تعرف عن صديقنا م » قلت : « لا جديد من أخباره ! » قال : « يهتف بى الساعة هاتف أنه فى شر ! » وفى صباح اليوم التالى كان نبأ شروعه فى الانتحار منشوراً فى الصحف ! وفى الرسائل التى تبادلاها بعد هذه الحادثة ما يبعد الظن بأن الرافعى كان يعلم شيئاً !

وكان بينه وبين رجلٍ قضية ، فغاظه ، وجاءنى الرافعى يوماً محنقاً وهو يقول : « سينتقم الله منه ! سينتقم الله منه ! قلبى يحدثنى بأن القصاص قريب ! » وفى الغد جاءنا نعى الرجل ، وكنت مع الرافعى وقتئذ ، فتندت عيناه بالدمع ، وتناول سبحته وأخذ يتمتم فى صوت خافت وشفته تختلج من شدة الانفعال !

هذه حوادث ثلاث رأيتها بعينى ، ولعلها من عجائب الأخبار عند بعض

القراء ، وأحسبنى قد رأيت له غير ذلك ولـكنى لا أتذكره الآن ...

وحدثنى أن أباه كان مسافراً مرة إلى بلد ما ، وكان عليه صلاة ، فافترش مصلى وأخذ يصلى على رصيف المحطة ، وإنه لـكذلك إذ جاء القطار ، قال الرافعى : « وكان أبى حريصاً على ميعاد هذه السفرة ، يخشى شيئاً لو تأخر عن موعدها ، وما كان بين موعد قدوم القطار وسفره ما يتسع لصلاة الشيخ ؛ ولـكن الشيخ استمر فى صلاته على وَنَى واطمئنان ؛ وماتحرك القطار إلا بعد أن فرغ الشيخ من صلاته واطمأن فى كرسيه وحيَّا مودِّعيه ووصّى ؛ وكان سبب تأخير القطار شيئاً غير مألوف يتصل بشأن من شئون المحطة ! »

وأحسبه ذكر مرة فى بعض ما كتب، كيف ثقل نعش أمه على كتفه ثم خفّ!

وأخبرنى أنه لما مات أخوه المرحوم محمد كامل الرافعى استحضر روحه فلبت نداءه ، وكان بينهما حديث لا أذكره . وحاول مرة أن يعلمنى وسيلة لتحضير الأرواح ولـكنى لم أتعلم !

وكان يحفظ كثيراً من الأدعية والدعوات لأسبابها !

ولما وقع فى حب (فلانة) ونال منه الوجد بها ، لجأ إلى العرافين فى أمل يأمله ، فكتب تميمة فعلقها فى خيط فربطها فى سارية بأعلى الدار تتلاعب بها الريح ... قال : « ولـكن أموراً عجيبة مفزعة وقعت لى ولأهلى ولسكان الدار جميعاً فى خلال اليومين اللذين كانت التميمة معلقة فيهما ؛ فأيقنت أن ذلك من ذلك ؛ فإن لـكل تميمة غايتين : إحداهما ما تأمل وثانيتهما مما تخاف ، وكان ما وقع لى وما يتهددنى من شر ، أكبرَ عندى من الأمل الذى أرجو ؛ فندمت على ما كان ، وتسللت إلى السطح فحللت رباط التميمة وفضضت خاتمها . . . قال : فما فعلت ذلك حتى عادت الأمور تسير على عادتها فى رفق وأناة ، وزال ما كنت أحذر وهدأتْ نفسى من ناحيته ؛ فما كان شأنى فى الحالتين إلا كراكب سفينة هبتْ عليها عاصفة ثم قرَّت ! . . . قال : وما كان الذى وقع لى فى هذين اليومين مما يقع فى العادة ، ولا كانت نهايته ، وقد فضضت خاتم التميمة ، بالنهاية التى تنتظر ... ! »

وكان يؤمن إيماناً لا شك فيه بأن يوماً ما سيأتى فيرتد إليه سمعه بلا علاج ولا معاناة، لأن بشيراً من الغيب هتف بهذه البشرى فى نفسه ؛ فهى لا بد واقعة ! وقد مات وعلى مكتبه رسالة من صديقه الأستاذ فليكس فارس يشير عليه بتجربة لترد عليه سمعه الذى فقده منذ ثلاثين سنة أو يزيد ، ورسالة أخرى من صديقه الأستاذ حافظ فيها شئ يشبه ذلك !

وأحسبه قال لى مرة أو مرات وكنت جالساً أتحدث إليه : « ارفع صوتك بالحديث لعل الساعة الموعودة قد حانت فأسمع ما تقول ! »

ولو أننى ذهبت أستقصى ما أعرف من مثل هذه الأخبار ما وسعنى الوقت ، وفى بعض ما قدمت الكفاية لمن يلتمس أسباب العلم

* * *

وكان الرافعى ولوعاً بالرياضة البدنية من لدن نشأته ، يعالج أسبابها فى أوقات رتيبة ، وكان المشى الطويل أحبَّ رياضة إليه

خرجت مرة فى جماعة من صحبى يوم شم النسيم للرياضة بُعيد الفجر ، وكان معنا ماؤنا وطعامنا وقد عزمنا أن نقضى اليوم كله فى الخلاء ، فلما صرنا على بعد ميل من المدينة والشمس لما تشرق ، لمحت الرافعى على بعد يخب فى مشيته على حافة قناة بين زرعين ؛ فلما دنوت منه رأيته يميل فيبلّل كفه بأنداء الفجر على أوراق البرسيم فيمسح بها وجهه وهو مغتبط مبسوط ؛ وأقبلت عليه أسأله ، قال : « هذه رياضة تحلو لى كثيراً ، فما أتركها إلا لعارض ، بل إنى ليطيب لى أحياناً أن أخرج من البيت قبل الفطور لأجول هذه الجولة، ثم أعود لأفطر وأخرج إلى الديوان ... » قلت: وهذا الندى الذى تغسل به وجهك؟ قال: «إنه ينضر الوجه ويردّ الشباب!» ثم سأل: «وأنتم أين تقصدون ؟» قلت : هذه رياضة لا نقوم بها فى العام إلا مرة، وإن معنا لطعاماً وماء وحلوى ؛ فهل تصحبنا ؟

قال : « وددت ولكن فى غير هذا اليوم ... أسأل الله لكم العافية ! »

ونالنا فى هذا اليوم شر لم نتوقعه، فعدنا قبل أن ينتصف النهار محزونين ! ...

وسمع الرافعى بما نالنا فقال : « هو ذلك ! إن الشر ليتربص بالمسلم الذى يحتفل لهذا اليوم أكثر مما يحتفل لمطلع المحرم ! هذه وصية أب ! »

وكان يعالج كثيراً من وسائل الرياضة غير المشى ، وقد أتقن تمرينات « صاندو » الرياضى الفرنسى المشهور ...

ولو أن أحداً دخل منذ سنوات الغرفة التى كان فيها مكتب الرافعى ، لرأى (عُقْلةً) تتدلى من السقف ، وكُراتٍ وأساطين من الحديد ملقاةً إلى جانب ، وأثقالاً من أثقال الرياضة مسندة إلى الحائط

وقد كان إلى قريب يملك عوداً طويلاً من الحديد الغليظ يعلق فى طَرَفيه ولديه الشابّين سامى ومحمد ، ثم يرفعهما بيده كما يفعل أبطال الحمل حين يحملون من أثقال الحديد ... !

وكان ولَعه بالرياضة يحمله على السعى إلى أبطالها يلتمس صداقتهم ؛ ومن أصدقائه المصارع الكبير المرحوم عبد الحليم المصرى ، والبطل المصرى المشهور السيد نصير !

ومن عجائب الازدواج فى شخصية الرافعى أنك كنت تنظر على مكتبه ثلاث صور لا تجتمع فى مكان ؛ هى صورة المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وصورة الرياضى الفرنسى المشهور صاندو ، وصورة . . . كريمان هانم خالص ، ملكة الجمال التركية ؛ واسترعى اجتماع هؤلاء الثلاثة ملاحظتى ذات يوم ؛ فقال وأشار إلى صورتى صاندو والشيخ محمد عبده :

« هاتان قوتان تعملان فى نفسى : قوة فى روحى ، وقوة فى جسدى ! »

قلت : « وهذه ... ؟ »

قال : « وهذه ..! ما أجلها ! انظر ! ألا تقرأ شعراً مسطوراً على هذا الجبين ؟ »

وكان سباحاً ماهراً ، وكانت له جولات فى السباحة يشهدها شاطئ سيدى بشر فى الصيف ، وكان يقصد هو وأسرته للاستحمام هناك جانباً من الشاطئ غير مطروق لعنفوانه وشدة موجه ، وكان يمزح ويسميه « بلاج الرافعى » إذ قل

أن يقصد إليه للاستحمام أحد من المصطافين فى سيدى بشر غير الرافعى وأسرته .

ولا يطعن فى قدرة الرافعى على السباحة أنه أوشك أن يغرق مرة ؛ كان ذلك قبل منعاه بأشهر ، وكاد يغرق معه طائفة من أولاده ، لولا أن أسرع حارس الشط لنجدتهم .

وللرافعى صورة طريفة تصورها منذ بضع عشرة سنة ، وتمثله فى زى أبطال الرياضة المشهورين : عارى الجسد بارز العضلات !

وله مقالات مشهورة عن الرياضة البدنية ، نشرها مسلسلة فى مجلة « المضمار » الرياضية التى كانت تصدر فى القاهرة منذ بضع عشرة سنة .

وكانت عنايته بالرياضة من أسباب قوته البدنية ، ومن أسباب قوته العصبية أيضاً ، ومن هاتين كان اصطباره الرافعى على العمل الشاق فيما يعالج من شئون الأدب.

ولكنه وا أسفا ... قد مات بغير علة ، لأن القدر أقوى من احتيال البشر !

* * *

قلت فى أول هذا الفصل : إن الرافعى لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم ما تفرض عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوبَ الناس فيما يليق وما لا يليق ...

فلعل قراءَ الصحف المصرية ما يزالون يذكرون ذلك الإعلان المشهور الذى كان يطالعهم فى كل جريدة وكل مجلة عن « الفسفورين » وفى رأسه صورةُ الرافعى وشهادةٌ بخطه عن مزايا الفسفورين الذى « شربه فكأنما شرب فيه الكهربا . . . »

ولعل كثيراً من الذين قرءوا هذا الإعلان ورأوا فى رأسه صورة الرافعى وشهادته بخطه — قد عجبوا وسألوا أنفسهم : كيف يرضى رجل كالرافعى أن يضع نفسه هذا الموضع ؟

ولعل كثيراً منهم كذلك كانوا يعتقدون أن الرافعى لم يكتب هذا الإعلان إلا مأجوراً كما يؤجر « نجوم » السينما وملكات الجمال على الإعلان عن صنوف العطر والصابون وأدوات الزينة ... ... !

... ولكن هذا الذى كان يدور فى خَلَد جميع القراء ، أو أكثر القراء ،

لم يكن يخطر للرافعى أو يدور بخلده ؛ بل لعله كان يراها مفخرة له على أدباء الجيل أن يؤخذ بشهادته من دونهم جميعاً ، وأن تُنْشَر صورته كلَّ يوم فى كل جريدة مع لقب « إمام الأدب وحجة العرب ... » الذى نحله إياه الأمير شكيب أرسلان فى بعض ما كتب عنه ! وأحسبه قال لى مرة : « إن الأديب فلان ليأكله الغيظ كلما رأى هذه الصورة مقترنة إلى هذا اللقب الذى لا يتطاول إليه أديب من أدباء الجيل ! »

أُتراه كان يعتبرها شهادةً منه بفائدة الفسفورين ، أم شهادة من الفسفورين بإمامته ...؟

ولكنه — يرحمه الله — لم يكن يعرف من تقاليد الناس ما يؤهله ليرى أن نشر صورته مع مثل هذا الإعلان هو عمل لا يليق !

والسبب الذى دعاه لكتابة هذا الإعلان ، أنه ذهب مرة ليشترى دواء من صيدلية ؛ فأهدَى إليه مَن أَهدى شيئاً من الفسفورين زعم أنه يعينه على المجهود العصبى الذى يبذله فى معاناة الأدب ؛ ثم دعاه بعدُ إلى كتابة هذا الكتاب ؛ فلما أجابه الرافعى إلى ما طلب ، بعث إليه فى منزله بهدية من مركَّبات الفسفور فى صندوق ... ثم كان كتاب الرافعى — كما رآه القراء — إعلاناً بأبخس الأثمان ، وهو راضٍ مسرور !

وثمة إعلان آخر غير هذا الإعلان ، نشره منذ سنين فى مجلة المقتطف[1]، يُشيد بفنِّ مهندسٍ مشهور ؛ لأنه وضع له رسماً لمنزله الذى مات قبل أن يبنيه ؛ وكان هذا الإعلان هو كل أجر المهندس على الرسم الذى وضعه !

وإلى القراء هذا الإعلان ؛ أثبته هنا طُرفةً أدبية لا يقع القراء على كثير من أمثالها ...!

---

(١) سنة ١٩٢٨

إلى المهندس النابغة الأستاذ رمسيس ...

عزيزى الأستاذ رمسيس

تأملتُ رسمك الجميل الذى وضعتَه لمنزلى ، وتتبعتُ مواضعَ الاتصال فيه بين قريحتك المبدعَة وبين شكل الطبيعة ورُوحِها ؛ فأشهدُ لكأن هذ الرسم بما فيه من القوه يُحاولُ أن يحيا فى نظر من يَتأمله .

إنك بهذا الذوق السليم الحىّ لتعطينا السرورَ فى شكل من الفن، حتى لو مَلَكَ المالكُ رُقعة من الأرض كالبقعة من الظلمة لوضعتَ لها من هندستك غُرَّةَ فجر يضىء عليها .

وأراك بهذه الدقة وهذا العلم كأنما تُرغِمُ الطبيعة أن تقدم لك حساباً عن كل مكان تتناوله منها ؛ وأحسبها لو هى صنعت بناءً كما تصنعُ ثمارَها وأزهارَها لجاءت به فى موضعه على الرسم الذى تتخيَّله أنت لموضعه ، كأنك أُعْطيتَ بالعلم سرَّ إظهار الجمال فى أشكاله كما أُعطيتْ هى بالقُدرة سرَّ تكوين الأشكال فى جمالها .

ما أبدعَ ما تمزجُ أيُّها الساحرُ بين القريحة والمادة ، وما أدقَّ ما تصلُ بين الجمال والمنفعة ، وما أكمل ما تحققُ بين المخيِّلة والواقع ! إن هذه الخطوط التى رسمتها لتكون ميلادَ بيت جميلٍ هى نفسها ميلادُ فنٍّ بليغ يقيمُ لك بناءً نفخاً من إعجاب محبك .

ديسمبر سنة ١٩٢٨ — مصطفى صادق الرافعى

وقد طبع الأستاذ رمسيس من هذا الكتاب آلاف الصور ليكون إعلاناً عن فنه بشهادة الرافعى ؛ وحسْبك بها من شهادة !

* * *

ولئن كان فى هذين الإعلانين الكفاية لإثبات ما قدمت من وصف أخلاقه الاجتماعية ، إن فى الحادثة التالية لَشاهداً حقيقاً بالنظر :

عاد الأستاذ حافظ . . . من الحجاز فى إجازته السنوية ، فأهدى إلى الرافعى سُبْحة نادرة لمناسبة عودته ، زعم له أنها تساوى بضعة جنيهات .

وعرض الرافعى السبحة علىّ وقال : « كم تساوى ؟ » قلت : « لا أدرى ! »

قال: « فهل لك أن تقوِّمها فى السوق؟ » فذهبت بها — ولم أكن أعرف أنها مهداة إليه — فلم أجد لها شبيهاً فى السوق ، ولكن تاجراً أنبأنى أنها لا تساوى أكثر من جنيه !

وأنبأت الرافعى بما سمعت ، فما لبث أن تناول قلمه وكتب رسالة إلى صديقه يعتب عليه أن يغالى بقيمة الهدية إلى خمسة أمثالها ! !

وعلمتُ بعدُ بما كتب الرافعى فتألمت لذلك ولم أكتم عليه رأيى ؛ فنظر إلىّ مدهوشاً وهو يقول : « أتراه خطأً أن أكتب إليه بهذا ... ؟ »

قلت : « نعم ! » فسكت هنيهة ثم قال : « وهل تراه يغضب لهذا ؟ »

قلت : « أظن ! »

فعاد إلى سكوته وفى وجهه الأسف !

وجاءه بعد يومين جواب صديقه بالبريد ، فيه عذْل ، وفيه عتاب ، وفيه ورقة بجنيه يطلب إليه أن يشترى به سبحة مثلها إن وَجَد ... !

وقرأ الرافعى رسالة صديقه ؛ وكان حرياً أن يشتدّ به الأسف لجواب صديقه ، لولا أن هذا الجنيه قد محا ما كان فى نفسه ... !